ما ينفقهُ على التعليم واما المصري فينفق على التبغ اكثر من ثلاثة عشر ضعف ما ينفقهُ على التعليم

وهذه المقابلة بيننا وبين سكان الولايات المتحدة الاميركية تصلح ان تكون بيننا وبين سكان انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وغيرها من الممالك المرتقية فان الدخل فيها كلها اكثر كثيرًا منهُ في هذا القطر وكذلك ما ينفق على التعليم واما ماينفق على التبغ والمسكرات فقليل جدًّا بالنسبة الى الدخل

مكاتب المسلمين

« تابع ما قبلهُ »

وهاك ما ذكرهُ ابن نديم عن مجموع آخر من الكتب وهو حقيق بالنظر والاعتبار

"قال محمد بن اسحق كان بمدينة الحديثة (ممَّا يلي الموصل) رجل يقال لهُ محمد بن الحسين ويعرف بابن ابي بعرة جمَّاعة للكتب لهُ خزانة لم أرَ لاحد مثلها كثرة تحتوي على قطعة من الكتب العربيَّة في النحو واللغة والادب والكتب القديمة . فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي وكان نفورًا ضنينًا بما عندهُ خائفًا من بني حمدان فاخرج لي قمطرًا كبيرًا فيهِ نحو ثلثماية رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود أدَم وورق خراساني فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من اشعارهم وشيء من النحو والحكايات والاخبار والاسماء والانساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم . وذكر ان رجلاً من اهل الكوفة ذهب عني اسمهُ كان مشتهرًا بجمع الخطوط القديمة وانهُ لمَّا حضرتهُ الوفاة خصهُ بذلك لصداقة كانت بينهما وافضال من محمد بن الحسين عليهِ ومجانسة المذهب فانهُ كان شيعيًّا . فرأيتها وقلبتها فرأيت عجبًا الاَّ ان الزمان قد اخلقها وعمل فيها عملاً ادرسها واحرقها وكان على كل جزء او ورقة او مدرج توقيع بخطوط العلماء واحدًا اثر واحد فذكر فيهِ خط مَن هو وتحت كل توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفًا بخط خالد بن ابي الهياج صاحب علي رضي الله عنهُ . ثم وصل هذا المصحف الى عبد الله بن حسان رحمهُ الله ورأيت فيها بخطوط الامامين الحسن والحسين . ورأيت عندهُ امانات وعهودًا بخط امير المؤمنين عليهِ السلام وبخط غيرهِ من كتَّاب النبي صلعم ومن خط العلماء في النحو واللغة مثل ابي عمرو اسحق بن العلاء وابي عمرو الشيباني والاصمعي وابن الاعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط اصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والاوزاعي وغيرهم

ورأيت ما يدل على ان النحو عن ابي الاسود ما هذه حكايتهُ وهي اربعة اوراق احسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام سيبويه في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليهِ بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحتهُ هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيهِ فما سمعنا لهُ خبرًا ولا رأيت منهُ غير الصحف هذا على كثرة بحثي عنهُ

[المقتطف . ذكر ما تقدم ابو الفرج محمد بن اسحق الوراق البغدادي المعرف بابن اسحق النديم في كتاب الفهرست الذي ألفهُ سنة ٣٧٧ للهجرة]

وذكر ياقوت الرحالة المشهور انهُ رأى في مرو اكثر من اثني عشر خزانة للكتب وهناك جمع اكثر ما ذكرهُ في معجم البلدان وكان اصحاب الكتب لا يضنون عليهِ بكتاب يستعيرهُ منهم وكثيرًا ما كان يبقى عندهُ مئتين من الكتب المستعارة

وقد اشرت قبلاً الى خزائن الكتب التي جمعها الحكم في الاندلس واقول الآن انهُ لم يفقها الاَّ خزائن الكتب التي جمعها الخلفاء الفاطميون في القاهرة . وقد اختلف المؤرخون في عدد ما كان فيها من الكتب وهي مئة الف مجلد على اقل تقدير وكان فيها كرتان الواحدة قديمة جدًّا والثانية صنعها ابو الحسن لاسد الدولة

وسنة ٣٩٥ انشأ الخليفة الحاكم دار العلم المسماة ايضاً دار الحكمة وجمع اليها اعظم علماء العصر في كل فن وقطع لهم ٢٥٧٠ دينارًا في السنة نفقة

ثم تفرق الجانب الاكبر من هذه الكتب ايدي سبا وصارت تعطى للناس بدل رواتبهم

[المقتطف . وقد اشار الكاتب بذلك الى ما ذكرهُ المقريزي في خططهِ فرأينا ان ننقل كلام المقريزي برمتهِ اتمامًا للفائدة قال نقلاً عن السيوطي " انهُ ذكر عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن احمد فامر خزّان دفاترهِ فاخرجوا من خزانتهِ نيفاً وثلاثين نسخةً من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل بن احمد . وحمل اليهِ رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمئة دينار فامر العزيز الخزّان فاخرجوا من الخزانة ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطهِ . وذكر عندهُ كتاب الجمهرة لابن دريد فاخرج من الخزانة مئة نسخة منها . وقال في كتاب الذخائر عدة الخزائن التي يرسم الكتب في سائر العلوم بالقصر اربعون خزانة من جملتها ثمانية عشر الف كتاب من العلوم القديمة قال وكنت بمصر في العشر الاول من محرَّم سنة ٤٦١ فرأيت فيها خمسة وعشرين حملاً موقرة كتبًا محمولة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير

ابن الموفق في الدين بايجاب وجبت لها عمَّا يستحقانهِ وغلمانهما من ديوان الحسبيين وان حصة الوزير منهما قوّمت عليهِ من جاري مماليكهِ وغلمانهِ بخمسة آلاف دينار. وذكر لي من لهُ خبرة بالكتب انها تبلغ اكثر من مئة الف دينار . ونُهب جميعها من دارهِ يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها ممَّا نُهب من دور من سار معهُ. هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى ما صار الى عماد الدولة ابي الفضل بن المحترق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتلهِ الى المغرب وسوى ما ظفرت بهِ لوائة محمولاً مع ما صار اليهِ بالابتياع والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين واربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي اخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونهُ في ارجلهم واحرق ورقها تفاؤلاً منهم انها خرجت من قصر السلطان اعز الله انصارهُ وان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليهِ الرياح التراب فصار تلالاً باقية الى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب . وقال ابن الطوير خزانة الكتب كانت في احد مجالس المارستان اليوم يعني المارستان العتيق فيجيء الخليفة راكباً ويترجَّل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر اليهِ من يتولاها وكان في ذلك الوقت الجليس بن عبد القويّ فيحضر اليهِ المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحهُ من الكتب فان عنَّ لهُ أخذ شيء منها اخذهُ ثم يعيدهُ وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل وفيها من اصناف الكتب ما يزيد على مائتي الف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات. فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ ومنها النواقص التي ما تمت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على باب كل خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة في مكان نوقها وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائرهِ كابن البوَّاب وغيرهِ وتولى بيعها ابن صورة في ايام الملك الناصر صلاح الدين . فاذا اراد الخليفة الانفصال مشى فيها مشية لنظرها . وفيها ناسخان وفرَّاشان صاحب المرتبة وآخر فيعطي الشاهد عشرين ديناراً ويخرج الى غيرها . وقال ابن ابي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر ومن جملة ما باعوهُ خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا ويقال انهُ لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ومن عجائبها انهُ كان فيها الف ومائتا نسخة من تاريخ الطبريّ الى غير ذلك ويقال انها كانت تشتمل على الف وستمائة الف كتاب

ومن الخطوط المنسوبة اشياء كثيرة انتهى. وممَّا يؤيد ذلك ان القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن علي لما انشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة الف كتاب مجلد . وباع ابن صورة دلال الكتب منها جملة في مدة اعوام فلو كانت كلها مائة الف لما فضل عن القاضي الفاضل منها شيء . وذكر ابن ابي واصل ان خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين الف مجلد " انتهى ما ذكرهُ المقريزي]

وذكر المقريزي وابو المحاسن والنويري ان من جملة ما وجد في دار امين الدولة ابي يحيى السامري كتب ثمينة يبلغ عددها مئة الف مجلد وبعضها من خط امهر النسَّاخ . ولمَّا توفي الامام نور الدين علي ابن جابر في القاهرة سنة ٧٢٥ وُجد في خزانة كتبهِ ٦٠٠٠ مجلد

والظاهر ان جانبًا كبيرًا من الكتب التي كانت في القاهرة حُمل الى الشام فوضع بعضهُ في طرابلس وحرقهُ الصليبيون لمَّا فتحوها سنة ٥٠٢ للهجرة على ما قالهُ مؤرخو العرب والبعض الآخر وُضع في المدرسة الناصرية بدمشق التي بناها الملك الناصر يوسف الايوبي . وذكر النويري ان الملك الناصر بعث من جملة هدية الى الخليفة في بغداد ثلثمئة مجلد بديعة النسخ

وقال ابن خلدون ان الوزير ابا الحسن علي بن يوسف القفطي جمع من الكتب ما لا يوصف قُصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها واوصى بكتبهِ للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين الف دينار[1]

وقال احمد العسقلاني المؤرخ عن محمد بن يعقوب الفيروزبادي مؤلف القاموس انهُ لم يكن يسافر الاَّ ومعهُ احمال كثيرة من الكتب . ومن الغريب ان افريقية لم تكن دون غيرها من ممالك الاسلام في الكتب والمكاتب فقد قال مؤرخ من اهالي القيروان ان قاضيها واسمهُ ابو الفضل احمد جمع كتبًا بيعت بعد وفاتهِ بالف دينار . ولما استولى الافرنج على مدينة سنة ٨١٧ للهجرة حملوا منها كل ما وجدوهُ فيها حتى كتب العلم وكانت كثيرة

وممَّا يذكر بالاسف ان مؤرخي العرب لم يذكروا تاريخ المكاتب العربيَّة وكل ما ذكروهُ عنها جاء عَرَضًا في كلامهم على غيرها . وقد ذهبت هذه المكاتب ايدي سبا ولا سبيل لجمع شملها الآن فان الفتن السياسية والحروب الاهلية والخصومات الدينية كل ذلك قلَّص ظلَّ العمران وابعد العلم والعرفان عن معالم الاسلام . ولولا المغول الذين فاجأوا ممالك المسلمين كالسيل العرم واستباحوا محارمها وفوَّضوا معالمها لبقيت من كنوزها العلمية بقية تذكر الى اليوم فانهم لما فتحوا بخارى وسمرقند غالوا في التخريب والتدمير فحرق ابن هولاكو مدرسة مسعود

(١) (المقتطف) نقلنا ذلك عن ترجمتهِ في فوات الوفيات

بك في بخارى سنة ٦٧١ وكانت من اوسع دور العلم في ذلك العصر فالتهمت النار كتبها الكثيرة . ولما فتح هولاكو مدينة حماه باع كتبها بابخس الاثمان. واثبت ابن بطوطة ان التتار قتلوا في العراق اربعة وعشرين الفاً من العلماء ولم ينجُ منهم الاَّ اثنان

ولا بدَّ لي قبل ختم هذه المقالة من ان اشير الى حالة العلم في الهند فاقول : ان المغول عادوا الى تعضيد العلم بعد ان تمهَّدت لهم الامصار ولو لم يبلغوا في ذلك شأو العرب في بغداد والقاهرة وقرطبة . فابناء جنكيز خان وتيمور لنك اعتنقوا الاسلام ورفعوا منزلة علمائهِ وتحت لوائهم نشأ نصير الدين الطوسي وقطب الدين الشيرازي وسعد الدين التفتزاني وغيرهم من المشاهير . وكان لدولة المغول في الهند اليد البيضاء في تعضيد العلوم والفنون . كان السلطان شاه جهان كثير المطالعة مغرماً بالكتب واتقن عادل شاه وقطب شاه صاحبا دكَّان خطى سلاطين المغول من حيث الاهتمام بالعلم وتقريب العلماء فنشأت مكاتب كثيرة في بلاد الهند ولكن لم يبقَ منها اثر بعد الفتنة لانها حُرقت او اخذت كتبها منها والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس . وليس في بلاد الهند الآن مكتبة عربية تقابَل بمكاتب القاهرة او المدينة او القسطنطينية

وعسى ان لا أُنسَب الى التباهي اذا اشرت الى المكتبة التي وهبتها لمدينة بطنا لان غرضي من ذكرها انما هو تنبيه المستشرقين اليها. وهذه المكتبة في كنف الحكومة الآن وهي تعتني بحفظها شديد الاعتناء ولكنها تبقى دون المراد حتى تضاف اليها مطبعة تطبع ما فيها من الكتب النادرة المثال وتنشرها على الملا. وقد كان المرحوم والدي شديد الغرام بالكتب وانفق على جمعها واستنساخها اكثر دخلهِ فبلغ عددها حين وفاتهِ ١٤٠٠ مجلد . ولما حضرتهُ الوفاة اوصاني بها وامرني ان اجعلها مكتبة عمومية حالما استطيع ذلك وقد ورثت منهُ محبة جمع الكتب وجمعت كثيرًا منها بعد وفاتهِ وفتحتها للجمهور سنة ١٨٩١ وكان فيها حينئذٍ سبعة آلاف مجلد من كتب الخط . وعدد كتب الخط فيها الآن ثمانية آلاف وفيها ايضاً نخبة كبيرة من الكتب الانكليزية العلمية والادبية

وفي هذه المكتبة كثير من كتب مشاهير المستشرقين مثل ده ساسي والسر غور اوزلي والمستر بلتشمان من مدرسة كلكتَّا وعلى بعضها حواشٍ بخطهم

اشرت سابقاً الى ما حلَّ بالكتب العربية في زمن الفتن السياسية والحروب الصليبية ولذلك قلَّت الكتب التي أُلفت بين القرن الثاني والسابع للهجرة وما يوجد من الكتب العربية الآن مؤلَّف اكثرهُ بين اواسط القرن السابع واواخر القرن الحادي عشر للهجرة . ولكنني توفقت الى جمع كتب قديمة في الفلك والجراحة والطب والفلسفة والتعاليم واكثرها مخطوط باقلام اناس

من المشاهير. وقد وصفت هذه الكتب بالاسهاب في المجلد الاول من الفهرست الذي طبعتهُ. من ذلك كتاب خط للزهراوي في الجراحة تاريخهُ سنة ٥٨٤ للهجرة وفيهِ صور الآلات الجراحية مصورة بالاتقان التام ويستدل منها على ان بعضها كان مثل الآلات الجراحية التي يظن انها اختُرعت منذ عهد قريب . ومنها كتاب ديوسقوريدس في النباتات الطبية الذي ترجمهُ العرب في زمن هرون الرشيد والنسخة التي عندي هي نفس النسخة التي وضعها جلال الدين شروان شاه في صيدلية شيراز منذ ستمائة سنة . وفي المكتبة كتب كثيرة ألفها علماء العرب في هذا الموضوع باتين اياها على كتاب ديوسقوريدس . وفيها ايضاً كتاب قديم جداً من كتب ثابت بن قرة وشيء من كتب نصير الدين الفارابي وعبد الرحيم البيروني . وقال لي احد مشاهير المستشرقين ان النسخة التي عندنا من شرح المعلقات للنحاس اصح من النسخ التي في مكاتب اوربا . وفيها كتب كثيرة من كتب سلاطين دهلي واكثر من اربع مئة ديوان من دواوين الشعر وبعضها مكتوب بخط بديع مذهب

وفيها كثير من كتب الدين كالحديث والفقه والاصول والتفسير وعليها تواقيع كثيرين من مشاهير المؤلفين كالسبكي والذهبي وابن حجر . وتاريخ الهند كتبهُ كثيرون من الكتاب المسلمين وترجمات سلاطين المغول

هذه الكتب نادرة المثال واذا لم تبذل العناية بحفظها فقدت في نصف قرن وعلى المتولين امر هذه المكتبة الآن ان يهتموا بتنقيح هذه الكتب وطبعها . وعسى ان تهتم حكومة الهند بطبع كتب الادب والتاريخ المهمة ونشرها بدلاً من تركها مدفونة في زوايا المكاتب فانها اذا فعلت ذلك افادت الجمهور باذاعتها كتباً يود الكثيرون الوقوف عليها

واذا التفتنا الى ما يحيق الآن بالمسلمين من ليل الجهل الدامس رأينا تاريخ المعارف التي كان لهم فيها القدح المعلّى رواية بديعة لا يكاد يرجى عَودها. ولكن على المرء ان يطرق باب الامل . فلنرجُ ان فجر المعارف قد دنا والامل بحسن المآل ليس بعيداً وان المسلمين الذين استيقظوا الآن من سباتهم ورأوا ان لابدَّ لهم من مجاراة الامم التي سبقتهم في العمران سيخرزون قصب السبق في العلم والعمل

(المقتطف . لقد تمكّنا من رد بعض ما اقتبسهُ الكاتب الى اصلهِ العربي ولم نتمكّن من رد البعض الآخر واضطررنا ان نتصرّف قليلاً في بعض ما ذكرهُ مراعاة للفرق بين اللغتين)